أنهم بَعُدَ صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة. فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية، من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب، متداول بين أهل المغرب الأندلس، حسن المنحى. وتبعه القرطبىّ فى تلك الطريقة، على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور، بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة، وتأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب؛ وهذا الصنف من التفسير قَلّ أن ينفرد عن الأول؛ إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هـذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة. انتهى.

٢ — قاعدة فى معرفة صحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف:

قال الإمام محمد بن المرتضى اليمانىّ رضى الله عنه فى كتابه «إيثار الحق على الخلق»:

فصـل: فى الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير، وأصح التفاسير عند الاختلاف بطريق واضح لا يشك أهـل الإنصاف فى حسن التنبيه عليه والإرشاد إليـه:

«اعلم أن كتاب الله تعالى، لما كان مفزع الطالب للحق بعد الإيمان، وكان محفوظا كما وعد به الرحمن، دخل الشيطان على كثير من طريق تفسيره، وعدم الفرق بين التفسير والتحريف والتأويل والتبديل، ولو كان لكل مبتدع أن يحمله على ما يوافق هواه، بطل كونه فرقا بين الحق والباطل. وقد ثبت أنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وهذا لا يتم إلا بحراسته من دعاوى المبطلين فى تصرفاتهم واحتيالهم على التشويش فيه، ولبس صوادعه وقواطعه بخوافيه، وهذه هذه فليهتم المعظم له بمعرفتها، ويتأملها حق التأمل، ويتعرف أسبابها ممن قد مارسها».

وقد أوضحها رضى الله عنه فى كتابه المذكور ، وجوّد الكلام عليها ثم قال : فإذا عرفت ذلك فلا غنى عن معرفة مراتب المفسرين ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الرواية ؛ ثم مراتب التفسير ، حيث يكون التفسير راجعاً إلى الدراية .

أما مراتب المفسرين : فخيرهم الصحابة رضى الله عنهم ، لما ثبت من الثناء عليهم فى الكتاب والسنة ، ولأن القرآن أنزل على لغتهم ، فالغلط أبعد عنهم من غيرهم ، ولأنهم سألوا رسول الله ﷺ عما أشكل عليهم ، وأكثرهم تفسيراً حَبْرُ الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقد جُمِع عنه تفسير كامل ، ولم يتفق مثل ذلك لغيره من الصدر الأول الذين عليهم فى مثل ذلك المعوّل ، ومتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجماهير ، وذلك لوجوه :

أولها : أن رسول الله ﷺ دعا له بالفقه فى الدين ، وتعلّم التأويل أى التفسير ، وصح ذلك واشتهر عن رسول الله ﷺ ، وله طرق فى مجمع الزوائد . وقال الحافظ أبو مسعود فى أطرافه : إنه مما أخرجه البخارىّ ومسلم بكماله . وفيهما من غير طريق أبى مسعود عند سائر الرواة « اللهم علمه الكتاب والحكمة »[1] ، وفى رواية « اللهم فقهه فى الدين » . وفى رواية الترمذىّ : أنه رأى جبريل عليه السلام مرتين ، ودعا له النبىّ ﷺ بالحكمة مرتين . وينبغى معرفة سائر مناقبه مع ذلك فى مواضعها ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها .

وثانيها : أن الصحابة اتفقوا على تعظيمه فى العلم عموماً ، وفى التفسير خصوصاً ، وسموه البحر والحبر ؛ وشاع ذلك فيهم من غير نكير ، وظهرت إجابة الدعوة النبوية فيه ، وقصة عمر معه ، رضى الله عنهما ، مشهورة ، فى سبب تقديمه وتفضيله على من هو أكبر منه من الصحابة ، وامتحانه فى ذلك[2] .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٨ .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ ـ سورة إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، ٤ ـ باب فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً .
عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه =

وثالثها : كونه من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة .

ورابعها : أنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. وفى رواية « بغير علم » رواه أبو داود فى العلم ، والنسائى فى فضائل القرآن ، والترمذى فى التفسير[1]، وقال : حديث حسن، وشرطه فيما قال فيه « حسن » أن يأتى من غير طريق .

والخامس : أن الطرق إليه محفوظة غير منقطعة ، فصح منها تفسير نافع ، ممتع . ولذلك خصصته بالذكر ، وإن كان غيره أكبر منه ، وأقدم وأعلم وأفضل ، مثل علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، من جنسه وأهله ، وغيره من أكابر الصحابة رضى الله عنهم . لكن ثبوت التفسير عنهم قليل ؛ بالنظر إليه، رضى الله عنهم أجمعين .

ثم المرتبة الثانية من المفسرين «التابعون» ومن أشهر ثقاتهم المصنفين فى التفسير: مجاهد وعطاء وقتادة والحسن البصرى وأبو العالية رفيع بن مهران ومحمد بن كعب القرظى وزيد ابن أسلم . ويلحق بهؤلاء عكرمة ، ثم مقاتل بن حيان ومحمد بن زيد ، ثم علىّ بن أبى طلحة، ثم السدى الكبير . وتتمة هذا فى الإيثار وفى الإتقان .

قال ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس وغيرهم . وكذلك

فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم . فدعاه ذات يوم فأدخله معهم . فما رُؤيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم . قال : ما تقولون فى قول الله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ؟ فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتِح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وذلك علامة أجلك ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ٩ .

فى الكوفة أصحاب ابن مسعود . وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد، ومالك بن أنس. انتهى.

٣ — قاعدة فى أن غالب ما صح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع ، لا اختلاف تضادّ :

قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معانى القرآن ، كما بيّن لهم ألفاظه . فقوله تعالى: « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فى أعيننا ، رواه أحمد فى مسنده(٢).

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه فى الموطأ(٣) .

وذلك أن الله قال « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ »(٤) . وقال : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »(٥) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ١٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، جزء ثالث ، صفحة ١٢٠ (طبعة الحلبىّ) .

(٣) الإمام مالك فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب القرآن ، ١١ ـ وحدثنى عن مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها ، صفحة ٢٠٥ .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٩] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٨٢] أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .